اوليات شعر الحرب
عند العرب

الدكتور نوري حمودي القيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

وقف وانا اتابع البحوث والدراسات والمناقشات التي تناولت ادب الحرب موقف الاعتزاز والاكبار لما اثارته من موضوعات جديدة ، وعبرت عنه من احاسيس واعية ، التزمت به من تحليل موضوعي في بعض جوانب المناقشات ، وادركت ان ادب الحرب الذي تحدث عنه الباحثون والدارسون هو محاولة جديدة تختلف في جوهرها واصولها عن الدراسات التقليدية التي ظهرت او كتب في ضوئها ادب الحرب ، وادركت ايضاً ان التحليل الذي شمل مفردات الادب ، وفنونه ، ووقف عند بعض تراكيبه واستعمالاته قد اخذ بنظر الاعتبار النصوص واعتمد المعايشة الحية ، واستند الى التصنيف الواقعي لما قدمته النص دون ان يحاول اخضاعه لمقاييس مسبقة او نظريات ادبية جاهزة ، او مقولات نقدية يمكن استخدامها في كل موضوع ، واستعارتها لكل حالة ...

ان المقالات التي كتبت في هذا الفن الادبي تمثل انتقالا في الدراسة الادبية ، وتحولا نحو الاتجاه الصائب في ميدان البحث النقدي والجمالي لابد ان تكون مقوماتها وما عرضت له مجال مناقشات جادة في رحاب الجامعات العراقية حاضرا والجامعات العربية وغيرها مستقبلا لان المفروض في امثال هذه الدراسات ان تضيف الى البحث عطاء غنيا ، ومادة ينتفع منها فى حقول المعرفة .

ومن خلال المتابعة لهذا الضرب الادبي وما قدمه ادبنا العربي القديم والمعاصر وجدت الامر يحتاج الى وقفة قصيرة لوضع بعض المسائل الاولية امام الباحثين ليكون التواصل بين الادب مدركا ، واستمرار التجربة منظورة ، وحقيقة التشابه في اطار الظروف المستجدة في كل عصر محسوبة ، لتأتي النتائج متقاربة .

وفي محاولة لدراسة النص الادبي القديم وهو يقف عند ضرب من ضروب الحروب تبرز مجموعة من الملامح يتعلق بعضها بالمفردة (اللفظة) ويتعلق بعضها الاخر بالصورة مفردة او مركبة ، وينصرف القسم الاخر الى الالتزام بالجانب التقليدي الذي يمهد للقارئ حالة الاستدراج والتوطئة وصولا الى الحالة الراهنة التي يريد الشاعران يصل اليها ، وان انصرافه الى هذا الالتزام وخضوعه الى هذا التمهيد واقدامه على هذا التناول يضعه في اطار الشعراء الذين سبقوه وهم يمهدون لقصيدة الحرب بصيغ تقليدية وفنية ، وصور ادبية وبلاغية ، وقف عندها القدامى ، وافرغوا في محتواها قدراتهم وابداعاتهم ، وعبروا من خلالها عن مشاعرهم واحاسيسهم ، وتطلعاتهم ، وربما ينصرف بهم التقليد الى الاطالة في الجانب التمهيدي اكثر من المعالجة المطلوبة لظروف الحالة

الحربية التي دفع الى ان يقول فيها قصيدته ، او يؤرخ في حدودها نزوعه المشروع تلبية لمهمة قبلية او قومية . والشاعر في هذه الحالة امين على مايقول ، صادق في التعبير ملتزم في دائرة التوافق بين مايبديه ابناء قبيلته ، ويظهرونه من شجاعة ، ويقدمونه من تضحية ، وبين ما يتعرضون له من هجوم ، وما يسلكونه من وسائل لرده . وكثيرا ماكان الشعراء - وهم يلجون هذه الابواب - يؤمنون بأن الاحساس القبلي او القومي يستثير في دواخلهم كل الاسباب التي تعطيهم هذه القوة ، ليتخذوا منها فرصة لتوثيب العزائم ، ودفعا لرد الخصم ، واستعدادا لتحمل الاعباء المفروضة . والرمز في هذه القصائد بالنسبة للدارسين في العصور المتأخرة والوضوح بالنسبة لمن عرف المسلك الطبيعي للقصيدة ، وادرك النتائج المترتبة على البدايات والمقدمات فأن الحالة المتطوره في البناء الكامل للقصيدة وهي تبني ابياتها ، وتعد مطلعها وتسلسل افكارها ، وتختار صورها ، وتمهد لكل حالة من حالاتها ، وتقف باعتزاز وأباء عند المواقف التي تراها جديرة بهذه الصيغة ، ولعل قصيدة عمرو بن كلثوم وبعض قصائد زهير بن ابي سلمى وبعض القصائد التي اختارها المفضل الضبي في المفضليات تمثل الحالة الموافقة لهذا الجانب التقليدي وتعطي التصور الواضح لطبيعة بنائها ، وتوافق معانيها ، وتشابه الفاظها ، وتسلسل صورها ، وربما كانت الدراسات التقليدية القديمة بعيدة عن ادراك هذا النهج الشعري وهي تقف عند هذه القصائد او تحاول دراستها او تستشهد بأبياتها ، ولكن الدراسة المقارنة والمحاولة الجادة في استقصاء المعاني وتحليل النوازع ، وترتيب

الاوليات تؤكد هذا الموضوع ، وتكشف عن الخيوط الموصلة بينْ هذه القصائد ، وتوضح العلاقة المتينة بين كل مفردة وصورة واشارة واسلوب واستعمال .. وبقى هذا النهج في بعض القصائد الحربية واضحا في قصائد العصور التي تلت العصر الجاهلي . ولكن بدأت تتضاءل دلالة الرمز ، وربما لمسنا في بعض قصائد الشعراء في العصر الحديث والمعاصر هذا النفس الذي اتخذ من الحديث عن المرأة بداية لقصيدة الحرب واشارة للوقوف عند معركة ، ووجد في هذا التناول بداية لموضوعات كثيرة يستوحيها من هذا الموقف ، بعد ان اصبح الدخول المباشر لموضوع قصيدة الحرب مسألة لايلتفت اليها النقاد باعتبارها خارجة عن البناء الفني وبعيدة عن التقليد الموسوم . والشعراء في هذه الحالة لايباشرون الحرب ولايدخلون اوراها ، لان الشاعر المحارب لايملك الوقت لمثل هذه البدايات وليس بحاجة الى التمهيد بعد ان دخل المعركة دخولا مباشراً ، والتحم مع الخصم التحاما لم يترك له فرصة استخدام الرمز ، او اللجوء الى المقدمة ، او التأمل في اختيار النهج التقليدي ، والصورة المالوفة ، واللفظة المستخدمة في هذا الضرب من ضروب الشعر .

واذا كان الجانب التقليدي قد اخذ حجمه في دائرة القصيدة الحربية في شعرنا القديم ، فأن القصيدة المباشرة قد ملأت حيزاً اكبر ، واتسعت استخداماتها لتتوزع على مجاميع من الشعراء وجدوا فيها صورة متقدمة ، ولوحة حية ، ومفردة ، معبرة ، وبعد ان اصبحوا وجها لوجه امام الخصوم ، ابتداء من حركة (الردة) التي كانت البدية الاولى لايقاف زحف الثورة الجديدة ،ومجابهة التوجه .. الانساني الصائب لحمل الانسان من واقع التفرق الى واقع التوحيد ، ومن ضيق التعامل الى سعة الممارسة ، ومن وهدة الوثنية الى سمو

الوحدنية . واصبحت قصيدة الحرب تخضع لتقاليد فرضتها طبيعة القصيدة المقاتلة والتزمت بها ارادة المقاتل الذي حاول ان يباشر خصمه او من يبلغه بقدرته على المصاولة ، وعزمه خوض المعركة ، وهنا كان الشعراء يعلنون عن انفسهم ويذكرون جراتهم ، ويعيدون على سماع خصومهم مايبعث في نفوسهم الهلع ، وينزل في قلوبهم الخوف ، ثم يتدرج الشعراء الى استشهاد ببعض الوقائع استلهاماً للمجد المسجل ، وترسيخاً للقدرة المتمكنة ، وتوثيقاً للارادة الصلبة والعزيمة المشهودة .

وفي كل حالة من هذه الحالات يستعير الشاعر صورة المعركة ، او حالة من حالات الانتصار الماحق ، او المصاولة الحاسمة ، وقصيدة الحرب هذه تعبر عن الحالة الراهنة ، وتلامس الحدث ملامسة قريبة ، وتنتزع المعاني التي الف المحاربون استخدامها ، وتصوغ العبارة التي وجدوا في استخدامها رنينا نغميا ووقعاً لفظيا مقبولا ، وتشير الى الحالة التي عاشت في نفوس المقاتلين وثابة ومتأهبة ، واستقرت في تقاليد الشعر رائقة ومزهوه ، واوشك هذا الضرب من الشعر ان يجمع معجما من الالفاظ ، ويوحد ضربا من الاساليب ، وينسق وحدة التعابير التي دارت على السن المقاتلين وهم يجابهون المعركة ويذوقون حر اللقاء ، بعد ان اخذ طريقه الى النفوس ، وعرف دروبه بين قنوات الفنون الشعرية الاخرى . وقد توزع قطعات متناثرة يستشهد بها عند الحديث عن المعركة ، او الوقوف على موضع او الاشارة الى حدث تاريخي ، اما اللغة التي استخدمها الشعراء المقاتلون ـ فكانت اقرب الى لغة الحديث ، واكثر صلة بما يعرف في ساحة المعركة لان الاغراض فيه تتداخل فهو يأخذ من المديح مايعطي الشاعر قوة الدفاع ، وشدة المقاومة ويؤكد في ذاته ارادة الذود ، ووجاهة الحق ، وسلامة المحاجة ،ويأخذ من الهجاء ما يضعف فيه ارادة خصمه ، ويقتل في نفسه حدة التطلع ، وينزع عنه اسباب المقاومة ويدخل الى نفسه الروع ، ويضيق عليه دائرة الخنادق ، بعد ان يسلبه كل الخصال الحميدة ، ويميت في ذاته عناصر الاقتدار ، اما الفخر فهو غرض يتسرب الى القصيدة خلال تضاعيف المديح ، وفي ظل سطور الاعتزاز وتعداد المفاخر ، وذكر المحامد والايام ،وهنا تتوارد المعاني التي عاشت في الوجدان العربي قيما كريمة ، واهدافا موروثة ، وانماطا من السلوك المأثور في الكرم والشجاعة ، والصلابة في القتال والثبات في المعركة ، وغيرها من المعاني التي تمثل الحدود الفنية لهذا الفن الشعري المتداخل ولم يجد الشاعر ضيرا من استذكار بطولة الرجال الذين ابلوا في الحرب البلاء الحسن ، وكانوا نماذج متقدمة في تحقيق الذات ، ورواد مبدعين في التضحية واشداء مؤمنين في مجابهة الموت ، وتحدي الخصم ، وانتزاع النصر ، واستعادة العز ، ويتخذ الشاعر من هذه الاعمال الجليله اسبابا من اسباب التوثيب ، ومدعاة لتأجيج العزائم وعاملا من عوامل المثابرة لتحقيق المكانة اللائقة التي سعى اليها هؤلاء الرجال وقدموا منأجل الوصول اليها اعز ما يملكون .

فالشعر هنا لم يعد غرضا تقليديا يتناوله الشاعر بعفوية الاحساس او يقوله تفريحاً عن هم ، او تعبيرا عن حالة طارئة اوصوتاً لذات مبهمة . فهو الصورة التي امتلأت بها قنوات الحياة ، وهو الحالة التي عاشت في الذهن والقلب وتألقت في العين وازدهرت في خوافق لواقع المنظور . وجد فية المقاتل صيحته المسموعة ،

وفرا في مفرداته حياة الجهاد والايمان ، وتلمس في صفحات سفره الخالدة وقائع الاعمال العظيمة ، وخوالد الزمن الحي ووجد في مضامينه نبضات الحياة الحافلة بكل عز ، المملؤة بكل فخر ، فانسابت حركة الشعر العربي في دروب المقاتلين شرايين دافقة ، وتحركت في اعماقهم نوازع المشاركة الوجدانية الصادقة لتلازم هذا الصوت الكبير الذي عرف مواطن الخلد فاندفع الى جناتها مؤمنا لا تصده ملذات الدنيا ،ولا تحول دون مطامحه شهوة البقاءبعد ان ايقن ان الخلود للمجاهدين ، والبقاء للصالحين المؤمنين ، والفناء للمشركين الذين باعوا اسباب الحياة بأبخس الاثمان فهانت الحياة في تصورهم وجاء الشعر ليعطي هذا المد الانساني ابعادا واسعة ، وتحمل مضامينه لواعج الشوق القتالي والتواجد الذاتي وهو يتحول الى قدرة غير محدودة . ويشق طريقه الى قوافي الشعر قافلة زاهية تضج بألحان البطولة وتصدح بأناشيد النصر . تزخر بأهازيج النفوس المؤمنة .

واذا كانت للحرب ظروفها الخاصة ، واسبابها الموجبة واساليبها التي تتحرك في اطارها ، فأن الشعر الذي عبر عن هذه الظاهرة وخضع لظروف خاصة تتناسب مع كل وجه من هذه الوجوه ، وتتناسبمع الاحوال التي مرت بها ، فالسلاح كان له صداه في القصيدة ، ومضاؤه وشدته ضروبه وكل ضرب منه خصائصه فالخيل لها رعايتها واكرامها ونسبها والرجال لهم بلاؤهم وشجاعتهم وصبرهم والسيف له قوته وحدته ، والرمح له صولته وقدرته والقسي والسهام لها فعلها ودقتها ولها رجالها الذين يحسنون التصويب فيها والدروع لها فرسانها .

وقد احتفظ شعر الحرب بمفردات غنية عن اسماء السلاح وصناعته . وانواعه وخصائصه وجوهره واقسامه ابعد ان جربه المقاتل وعرف دوره في المعركة ، وادرك اهميته في ساعات الضيق واستوعب احجامه في حالات الاحتدام ، وقد اقترن هذا الحديث بالتعاطف والاستجابة ، وتوثقت بين المقاتلين واسلحتهم وشائج الاتصال .واستدامت رفقه المصاحبة ، واستحالت العلاقة بينها الى احساس وجداني عميق ، وتجلى للباحثين نمط سلوكي فريد في هذا الباب بعد ان توارث الشعراء هذه المعاني ، وتواصلت في نفوسهم اسباب الاحساس بدورها الفاعل في حسم المعارك . ومثل ما ترك السلاح بصماته على وجه القصيدة الحربية ، وشغل الجانب الكبير منها فأن خصائص الرجال وادوارهم البارزة وصمودهم الراسخ قد مد الشعراء بوافر من المعاني وفيض من الصفات ، وجليل من الاعمال التي انعكست على الشعر ، فازدانت بها القصائد ، واستطالت عزا بما ابداه المقاتلون ، واظهروه من مواقف جريئة ، وتضحيات نادرة ، وبطولات مشهورة .

وقد الهب شعر الحرب قرائح الرجال ، واثار في دواخلهم رغبات التطلع الى الخلود وهم يتسمون بصدق العقيدة وسلامة المبدأ، ورسوخ الايمان ، وصفاء النية ، فازدحمت بشعرهم سوح المعارك ، وتوالت على السنة الرواة قصائدهم ومقطعاتهم وهي ترسم وقائعها ، وتحيط بأسباب النصر ، وتقف عند المواقف الانسانية الرائعة وتشيد بالبطولات الخارقة التي يظهرها المقاتلون داخل المعارك بعبارة تستمد حركتها من الحدث المنظور وصورة تعتمد الوانها من الساحة القريبة وحكاية تجمع تفاصيلها تركيبة المنظر المعاش . وقد اضفى هذا

اللون على قصيدة الحرب بريقا متميزا ، وحركة موحية ،واحساسا وجدانيا ظلت الاجيال تحمل اقباسه ، وتروى روائعة ، وتملأ جوانبها وحياتها بفرائد مجده وأبائه . .وعلى الرغم من ان اعدادا كبيرة من الشعراء قد دخلوا التاريخ وهم يروون احداثه ، ويسجلون وقائعه ، فأن اسماء كثيرة اخرى شاركت في احياء هذا الشعر وقدمت من روائعه ما ظل حيا في ذاكرة التاريخ لكنها لم تقترن بما قالت فجاءت مقطعات كثيرة خلوا من الاسماء اكتفى الرواة او المحدثون بعبارة (قال احدهم) . . او (قال الشاعر) . . او (قال) .
وهي ظاهرة ألمت بهذا الفن الشعري واوشكنا ان نفقد مادة شعرية كبيرة بسبب جهل قائليها ، وقد ترتب على هذا الضياع اغفال جانب واسع من جوانب هذا الباب لان الباحثين لا يستشهدون بالشعر غير المنسوب لاسباب تتعلق بصعوبة تحديد المرحلة الشعرية ، وبحراجة توثيقه الشعر غير المنسوب ، ولو احصينا مجاميع الشعر التي قيلت وهي خالية من الاسماء لتوفرت لدينا مادة جديدة تصلح لتحليلها ودراستها وتوثيق روايتها . وقد احسن القدامى من المؤرخين عندما وجدوا في هذا الشعر بابا واسعا من ابواب الاستشهاد وطريقا صالحا لتوثيق الاحداث والمعارك بما وضعوه بين يد الباحثين وهم يعرضون لمسيرة معركة او حركة فتح او انهاء رده ، او ايقاف حركة مناوئة ، وعلى النقيض من المؤرخين كان مؤرخو الادب لا يقفون الا على المشهور (في الغالب) ولا يعرضون لامثال هؤلاء الشعراء ، ولا يترجمون لحياتهم ، او يختارون لهم ضمن مجاميع الاختيار حتى اوشكنا ان نغفل كتب الادب عند محاولتنا دراسة واحد من هؤلاء ولعل اوضح النماذج لامثال هؤلاء الشعراء هم (القعقاع بن عمرو التميمي) و (عاصم بن عمرو التميمي) و (ابو نجيد) و (ابو مفزر الاسود بن قطبة) و (هاشم بن عتبه) الذين ارخو الحروب العراق وخاضوا ميادين القتال ، وكتبوا اعز الصفحات ، وسجلوا ادق اللحظات الحاسمة لمعارك فاصلة وشاركوا بسيوفهم وجراتهم وتضحيتهم وشعرهم في تخليد مآثر ايام (اليس) و (امغيشيا) الحيرة) و(عين التمر) و (دومة الجندول) و (الثني) و (الزميل) و(البويب) والقادسية بايامها الثلاثة (ارماث و(اغواث) و(عماس) وما تبعها من ايام (جلولاء) و(نهاوند) و(الري) و(جرجان) و(طبرستان) و(اذربيجان) .

ان شعر الفتوح الذي احتفظت به كتب التاريخ وبعض كتب البلدانيات والمغازى والسير يمثل النواة الاولى للشعر الحربي الذي عبر فيه الشعراء عن الحس الوجداني الصادق وهو يتردد على لسان المقاتلين ويعبر عن وجدانهم الحي ويعيش معهم لحظات المجابهة الصادقة ، وقد ابدى فيه الشعراء الفرسان او المقاتلين الواناً من المعاني التي تطورت مفاهيمها بتطور صناعة الحرب وتغيرت خصائصها بتغير اساليب القتال ، بعد ان انتقل العرب من ارض الى ارض واستبدلوا سلاحا بسلاح ، وانتهجوا مناهج جديدة تتوافق مع طبيعة الظروف المستجدة ، وقد اكتسبوا خبرة الميدان ، وخبروا طرق المجابهة ، وتعاملوا مع طبيعة الحالة التي اوجبتها سياقات التطور ودواعي الصراع .
وقد اختلطت هذه الصور بجانب (وحي ملموس تجلى في حلاوة الاستشهاد واقترن بذكرى نعيم الجنة ، وانساب الى نفوس المؤمنين قيمة انسانية عظيمة ، وتضحية بطولية خالدة . فكان حب الموت اقوى من حب

الحياة ، وقدرة الاندفاع للقتال اشد من نزعة التردد ، وعذوبة طعم الانتصار اعذب من مرارة الهزيمه .

ومثل ماكانت اسباب الخلود تدفعهم الى الاقدام الواعي وتستحثهم على اسقاط جبروت التسلط والشرك الوثنية ، فأن نزعة الشوق الى الارض واستجابة الحنين الى الوطن والاهل كانت تعتلج في قلوبهم وهم يقفون فوق ارض محررة ، فينزعون عنها غشاء الكفر ويبعدون عن اهلها سيطرة الخنوع ، ويعيدون اليهم الوجة الانساني المشرق . فكان لذكريات الاهل صوت حي في ادب الحرب وكانت لمراجع الصبا ايام حلوة في قصائدهم وهم يذكرونها في ارض بعيدة فيستلهمون من وفائهم حق الدفاع ، ومن اخلاصهم وجه المقاومة ،ومن حرصهم قدرة التضحية .

ان هذه الاوليات التي اردت الاشارة اليها تضع قاعدة للدراسات الادبية التي يمكن ان تقدم مادة في هذا الفن الشعري الخالد ، وان هذه الصورة التي حاولت جمع شتاتها في هذه العجاله تعطي الدارسين وجوها للمقارنة وهي متشابهة وتحدد لهم الاتجاهات التي اعتمدها الشعراء المعاصرون وهم يقفون امام المعركة الحاسمة التي امتد اليها التاريخ ليشد بين مفاصلها وقد تكررت بكثير من الوجوه ، وتقاربت في العديد من النوازع .حتى اوشكنا ان نقرأ ايام القادسية الاولى في وجوه الرجال الاشداء الذين استلهموا العزيمة من جدادهم الميامين ونتلمس نفحات الشعر في قصائد الشعراء المؤمنين الذين وقفوا على مقربة من الخطوط الامامية او شاركوا في اشد الملاحم ضراوة وخرجوا وهم يحملون الراية كما حملها القدامى ويكتبون الملحمة كما كتبها الفرسان الغر

والحرب ظاهرة لها خصائصها وانفعالاتها ، ولها حوافزها وتطلعاتها تستثير في النفس عوامل التوثيب ، وتبعث في اوصال الانسان الاحساس بالخوف والرهبة من جهة وحب الانتصار من جهة اخرى . وقد ادرك الانسان هذه الظاهرة وتعامل معها وفق ماكانت تمليهلا ارداته ، وتحدده ذاته ، وهي في كل حالة تلازم لونا من المشاعر ، وتعبر عن جانب من جوانب التداخل النفسي والشعر في حالاته المختلفة واجهة من هذه الواجهات ، وصدى انفعالي حاد لما يعتور الانسان من هذه الحالات وقد ادرك الانسان منذ مراحله الاولى هذا الاحساس ، فاستجاب له ، وتأثر به ، وخضع لعوامله الدافعة ، واسبابه الحادة . وقد قدم الشعراء وعند مختلف الامم انتاجا ادبيا وفيرا عبروا فيه عن هذه المشاعر ، وحددوا الاساليب الفنية التي اختاروا لها الفاظهم وصورهم تراكيبهم وقوالبهم الدلالية ، مستمدين المضامين المعنوية من وجدانهم القومي ومعبرين عن التطلع المشروع الذي تجسدت فيه نوازع الانطلاق والتحرر والمقاومة والحرب في كل اشكالها ومنطلقاتها كانت عاملا من عوامل اذكاء الشعر وتأجيج اواره ، وخلق الابداع المتمثل في تسجيل بطولات الرجال ، وتقديم النماذج المتقدمة التي اظهرت في صولاتها مواقف مشهوده واعمالا جليلة . وتضحيات نادره ، فهي في حقيقتها دافع مباشر من التحرك والانبعاث ، كما انها ظلت عاملا من عوامل الاستلهام المباشر للمواقف الجريئة التي سجلتها الامة عبر تاريخها الطويل ، وبهذه الخصيصة يحقق (شعر الحرب) مرحلة التواصل التاريخي الحي ويطوي مراحل التراخي التي عاشت في ضمير الامة ، وهي غير قادرة على تجاوزها وتبعث في نفوس الابناء اسباب التوجه لاختراق حجب المواقف المتخاذلة التي علقت ببعض المفاصل ، الامة تشعر ان هذه المواقف هي ليست حالتها الطبيعية لان المسار النضالي لها ، والاهتداء الواعي بمبادئها ورسالتها كانت تتحقق في حالة الاستمرار وعندما تكون اسباب القيادة قد وضعت في ايادي ابنائها الحقيقيين . نشعر الحرب هنافكان حلقة من حلقات التواصل لاختزال الفترات التاريخية وهو ينقل الحالات الانسانية الرائدة ويستمد اصوله من موحيات الاقتدار المتدفق في تراتيل الشعراء واحاسيس المقاتلين منهم وقد حفلت اشعارهم بالصور النادرة والاحداث الفريدة والحالات الانسانية الصادقة واقترنت كثرة فرائد هذا الضرب الشعري بكثرة التحديات التي كانت تتعرض اليها الامم ، او تجابهها وهي في حالات النهوض والتقدم ، لان فن الشعر الحربي وسيلة اخرى من وسائل الاشعاع ، ووعاء نابض من اوعية القيم السامية التي تحملها هذه الامم وهي تتدفع لترد عنها اعباء الهموم التي حاولت ان تستبد بها وتحول دون استمرارها في مسيرة الحياة ، .وقد التفت العرب الى هذا الجانب وخاصة من ارخ للشعر العربي دروس احوال الشعراء وقدم مجموعة من الضوابط والاحكام والمقاييس لتقويم الشعر وتوثيقه فقال ابن سلام في طبقات فحول الشعراء (القسم الاول ـ ٢٥٩) وبالطائف شعر وليس بالكثير وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء ، نحو حرب الاوس والخزرج ، او قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة (مايستثار من شرور بسبب العداوة) ولم يحاربوا . وذلك الذي قلل شعر عمان واهل الطائف في طرف

فأبن سلام وضع قاعدة لكثرة الشعر ، واستخلص قاعدة لقوله ، وسببا لاستثارة دواعيه وهي مسألة ظلت

قائمه في العصور التي تلت ، لان شعر الحرب لايقف على وصفها ، ولاينتهي عند حدود مظاهرها الواضحه ، وانما يتجاوزها للتعبير عن كل ملمح من ملامحها ، ويتسع ليشمل كل طرف من اطرافها ، ويبتعد ليصور كل حالة من حالاتها ، فشعر الحرب ساحة يتحرك عليها الشعراء بحرية واسعه ويأخذون من دائرتها مايغني عطاءهم الشعري مادتهم الادبية ويضفي على معانيهم من الالوان والاحاسيس ما يجعلها زاهيه وحادة في آن واحد . وتستلهم من الايام ، وصور الابطال ، وتضحيات الرجال وتوثيب العزائم مايمنحهم قدره الامتداد والتوسع في ميادين رحبة ، تتعزز في صورة البطل الفذ ، وتتجسد في ارادة المقاتل الشجاع ، وتتمثل في مصاولة المؤمن المتمكن وهي حالات قائمه في الفنون الشعريه التي يستوعبها المحيط الشعري لادب الحرب ، وقد زخر بالايام الخالده ، والمآثر المحموده والمواقف المشهودة . وكل ماتجاوز مرحلة ، او غادر عصرا استلهم منه مواقفه ، واستل من تراثه ايامة ، واستنهد على محامدة باعمال رجاله ، فكانت سلاسل الابطال تتداول في قصائد الشعراء ، وتضحياتهم تمر عبر القوافل الطويلة من الرجال وكان القوم يجدون في هذا الشعر هدية متميزة ، وتاريخا قوميا يستأثر به ويفاخر بامجاده كلما وجدوا في ذلك حاجة ، وكل ماتشابكت في سماء الزمن اصابع التردد والتخاذل والتناقض ولعل الجاميع الكبيره التي اختارها الرواة الاوائل من قصائد الشعراء ومقطعاتهم كانت ترسم هذا الاتجاه ، وتسجل الحقبة التاريخية التي عبروا فيها عن الفنوات الواعية التي تمر عبرها مشاعر الامة وتقرأ في اطار حركتها وقائع الاحداث ، وتوجه في مسارها تطلعات المستقبل الحضاري والفكري والتربوي .

وقد اقترن شعر الحرب بالخصائص الذاتية التي عاشت في وجدان الامة وهو يسجل ضروب الشجاعة ، واصناف التضحية وصفات البسالة والجرأة والاقدام ، ومثل ما اقترن شعر الحرب بعوامل الاستثارة ، ونزعات التوثيب ، واسباب التحدي فأن كتب الحماسة التي بقيت تشغل مساحات كبيرة في ديوان الادب العربي كانت تقترن بفترات التراخي ، والتفكك ويجد فيها مؤلفوها عاملا حاسما من عوامل تقوية العزائم ، واستنهاض الهمم ، وتربية الاجيال تربية سلية ليكونوا قادرين على مواجهة الاحداث الكبيرة التي تلم بالامة وتحاول الاخذ بخناقها وهي تتعرض لحملات التحدي ، وتضطر تحت ظروف التمزق ان تدافع عن وجودها وكيانها ووحدتها والذين انبروا لهذه المهمة من اصحاب الحماسات وكانوا من المفكرين الذين شعروا بأهمية هذا الضرب التاريخي من التأليف ، فأبو تمام الذي ظل يحمل في اعماقه جذوة الوحدة العربية الممتدة من الشام الى بغداد ، والفسطاط .

وفي كل موضع من هذه المواضع اهله واحباؤه ، وابو تمام الذي كانت مراثيه للقاده ومدائحه لهم تأتي من خلال احاسيسه الاصيلة ، وهي تتجسد في صور المديح وتتدفق في معاني الرثاء لان الشاعر كان يستذكر امجادهم ، ويستلهم عن ايام العرب ما يؤكد استثارة الهمم في نفوس المقاتلين ، وغالبا ما كانت قصائده حافلة بذكر البطل والفتى ، وكان ابو تمام يدرك اهمية شعر الحماسة وفي حقب بدأت حركات التمرد تشتد ، وصيحات

التزق تعلو وجة الدولة العربية ، وعناصر الشغب تمد نفوذها الواسع لتقليص رقعة الامة وقهر انسانها وتحجيم حركتها التاريخية وقد شهد عصره تمرد (بابك الخرمي) (والافشين) وبداية حركات اخرى كان حقدها الشعوبي يستمر واعمالها التخريبية تتسع ، وامام الظواهر التي بدأ المجتمع العربي يواجهها مواجهة فعلية ، وفي مجتمع تحركت في داخله اسباب التشكيك وعوامل التأويل الباطني ، وانتشار الدعوات المضللة تحت اغطية الدين وفي حدود واجهات حب آل البيت (عليهم الاسلام) .

كان ابو تمام الطائي يعد لوضع نهج تربوي ، ويسعى من اجل احداث نظرية ادبية ، واقامة سياج من التحصين الذاتي للحفاظ على الشخصية العربية والتمسك بالخصال الحميدة ، والتوجه الى غرس القيم العربية التي عاشت في الوجدان العربي خلقا قويما ، وصفات كريمة ، واعدادا تربويا رفيعا . ويختار لكل حالة ما يوفق فيها بين الذوق العربي ، والاستعداد الادبي المناسب ، ولم يقتصر ابو تمام على وضع كتاب واحد في هذا المجال وانما جمع حماستين كانت الاولى حماسته الكبرى التي وصفت بهذاه الصفة تميزا لها عن الحماسة الاخرى التي سميت الوحشيات وهي الحماسة الصغرى ونشرها وعلق عليها وحققها عبد العزيز الميني الراجكوتي (رحمه الله) .

ويبدو ان توجه ابي تمام لهذا الفن الشعري ، وايمانه بالمعاني الكريمة التي حملها شعر الحرب ، والفنون الشعرية التي صاحبته ، قد حملته على وضع الكتاب الثاني (الحماسة الصغرى) استكمالا للمهمة القومية ومتابعة للفكرة التي آمن بها في حياته . وهذا يسقط الفكرة التي ظلت عالقة في اذهان الاجيال التي ربطت بين تأليف كتاب الحماسة وعودته من بلاد خراسان بعد ان قصد عبد الله بن طاهر وهو يريد العراق ، وعند دخوله العراق اغتنه ابو الوفاء بن سلمة فأنزله واكرمه ، وتستمر الرواية التي اقتصها التبريزي في شرح الحماسة وهو ينفرد بها ، حتى يقول : فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة ، ففم ابا تمام ذلك واحرج صدره ، على حين سر ذلك مضيفه ابو الوفاء ، فأقبل على ابي تمام وقال له : وطن نفسك على هذا المقام فأن هذا الثلج لا ينحسر الا بعد زمان ، واحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها . وتظل هذه الرواية هي الحل المقبول عند النقاد القدامى والمحدثين ويبقى عنصر (الصدفة) هو الذي حرك (ابا تمام) وحمله على وضع هذين الكتابين اللذين ساهما في رسم منهج ادبي عريق في وضع كتب الاختيار . .

وتموت في خضم هذا الحديث قدرة الشاعر الفذ وتتبدد صورة التطلع الفكري وتنتهي افكاره الخيرة التي حاول التعبير عنها من خلال هذا التأليف الرائده ، لانها جاءت عن طريق (الصدفة) . والغريب ان مثل هذين الكتابين اللذين أرخا لا وسع مجموعة من الحرب شعر (الحماسة بما فيها من معان) بيرر تأليفهما بطريقة عفوية تبتعد عن المنهجية ، ولا تتصل بأية فكرة مسبقة ، بمثل هذا العمل الموجه .

وابو تمام لم يقف عند هذا الحد وانما كان حريصا على تجميع الشعر العربي الذي ما انتهى الينا مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاء وافرا لجاء علم وشعر كثير كما يقول ابن سلام نقلا عن ابي عمرو بن العلاء ، فالشعر

عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون واليه يصيرون ، ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوط قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لشعراء كثيرين عرفوا بكثرة الشعر وشهدوا وقدموا . . وابو تمام الذي حرص على اختيار قصائد الحماسة كان حريصا على لم اشتات الشعر وتجميع اوصاله المتناثرة ، فعمد الى جمع مختار اشعار القبائل وقد وقف عليه صاحب الخزانة ، وانصرف الى وضع كتاب (فحول الشعراء) وهي محاولات لا تخرج عن الاتجاه الذي سار فيه او حرص على ادائه ،او فكر في تخطيط مسالكة ، وهذه مسألة لايمكن تفصيلها في مثل هذا المجال لان دراسة مضامين هذه التآليف وتحليل الوافع التي تقف وراءها والتأمل في اختيار الشعراء والاغراض والمعاني ووضع الضوابط والمعايير تحدد الطريق العلمي والمنهج الفكري الذي اخذ به المفكر .

وفي الربع الاخير من القرن الثالث الهجري يقتفي شاعر آخر من قبيلة (طي)هو البحتري خطوات الشاعر المبدع ، والمخطط الرائد في وضع كتاب في الحماسة يتفق من حيث الفكرة مع كتاب حماسة ابي تمام ولكنه يختلف من حيث المنهج ويفترق من حيث التناول ، فهو كتاب اختيارات اعتمدت المعاني الاخلاقية والجوانب السلوكية والخصال المحموده ، ومايناقضها ، وقد غلب عليه جانب الزهد والتقوى ، واندفع مستجيباً الى معطيات العصر التي بدأت تتعاظم في عصر اشتدت به المطامع ، وتعالت صيحات الغدر ، وحاولت القوى غير العربية ان تضغط باصبعها على الوجه العربي لتمسح اصالته ، وتمزق اشراقته ، وقد استمر الصراع على اشده بين العرب وغيرهم ، وقد شهد قدرة الدوله تسحق جحافل الزنج واتباع البابكيه ، لتجربة الطويلة الى ان يعرفوا نوازع الانسان الحية ، ويدركوا مقدار الاستجابة لكل قيمة من قيمه ، ويستنبطنوا دواخله التي

وتشهد بداية ارتال جديدة من ارتال القرامطة . . هنا كان لا للبحتري من اختيار الطريق الذي اختاره ابو تمام ليحفظ مسيرته من حيث الفكرة ، لا من حيث المنهج ، الدوام والاستمرار ، وليترك اللاجيال العربية مرشدا تظل ملتزمة به وحاملة لواءه، ومستمدة من نماذجه اسباب التقدم ، وقيم المباهاة ، ومثل الالتزام التي يجد فيها طريق الحفاظ على رسالة الامة ، وقد وجد في (شعر الحرب)بغيته وكانت شواهده في حماسته شواهد خلقية رائدة ، ومعاني سلوكية رائعة ، عاشت دلالتها في وجدان الاجيال آمادا طويلة ، وهي ما تزال - ينبوعا ثرا من ينابيع الثقافة الثقافة العربية . .

ويشق المؤلفون هذا الطريق الادبي الرائد وهم يستقرئون شعر الحرب ويرجعون الى دواوين الشعراء ليلتقطوا منها ما يتفق مع المعاني الكبيرة التي وضعها المبدع الاول (ابو تمام) ولكنها كانت تختلف من حيث الاختيار الذي ظلت شخصيته (المختار) وهي المقياس الحقيقي والمعيار الثقافي المناسب وينبرى الخالديان (ابو بكر محمد المتوفي سنة ٣٨٠) و (ابو عثمان سعيد المتوفي ٣٩٠ - ٣٩١) ابنا هاشم ليضعا كتابا في شعر المحدثين ومثلها صنع ابو هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ ، وأبن فارس وعبد الله بن محمد العبد لكاني المتوفي سنة ٤٣١ ، وابن الشجري المتوفي سنة٥٤٢ وهي حماسة اقترنت باحداث كبيرة تعرضت لها الامة ،

فجاءت ابوابها مقترنة بباب الشدة والشجاعة واللوم والعتاب والمراثي والمديح والهجاء والادب ، وينهد صدر الدين بن ابي الفرح بن الحسين البصري المتوفي سنة ٦٥٩ اي بعد تعرض بغداد لاشرس هجمة ، واغتيال عروبتها واستباحة محارمها ومحاولة اسقاط دورها التاريخي ، ينهد هذا الرجل لوضع حماسة عدت في حساب الحماسات المشهورة وتذهب بعض الاخبار الى ان مؤلفها قتل على يد اتباع هولاكو مع من قتل مع الخليفه الناصر ، وهي اشارة تحدد لنا الدور الذي قدمه هذا المؤلف وهو يرى جحافل هولاكو تقترب ، وارتاله الصفراء تحرق الارض والانسان ، واوشك ان يطبق

بوبائه على المعالم الانسانية التي قدمت للعالم احل ما وصلت اليه . . وتبقى هذه المختارات الشعرية وهي تستمد اصولها من شعر الحرب تغني حركة الاحياء العربي باسباب البقاء ، وترفد مسيرة النضال والتقدم بعوامل الوفاء للقيم الانسانية الكريمة التي عبر من خلالها الشعراء عن احساسهم بالدور البطولي الذي اؤتمنو عليه .

فالحرب منذ ان عرفها الانسان ، واتخذها وسيلة من وسائله في الدفاع عن نفسه او الاعتداء على الاخرين - كانت مثار حديث المشاركين فيها ، وموضع استثارة لمن تهمهم نتائجها ، لان الحديث عنها لا يقتصر على جانب واحد ، ولا يقف عند مسألة منفصله عن ظروفها او اسبابها او نتائجها ، او ما تؤديه من عوامل غير مباشرة تظل عناصرها ملازمة ، وتبقى اواصرها مشدودة ، واذا كان العرب من الامم التي وجدت في الحرب سببا من اسباب بقائها والدفاع عن وجودها فأن حالتها بقيت قائمة ، وتقاليدها ظلت معروفة في كثير من ضروب الحياة ، وانعكست اثارها سلبا او ايجابا في وجوه النشاط الاجتماعي والثقافي والفكري ، ووجهت كثيرا من انماط سلوك ابنائها الوجهة التي تتناسب مع المرحلة التاريخية التي تخوضها وتتفق مع المطامح المشروعة التي تتوق اليها وتسعى الى تحقيقها في مقطعات شعرية موثقة ، كشفت عن الدقائق التي اغفلتها الرواية ، وعبرت عن الحس الانساني الذي يعتمل في نفوس المقاتلين وصاغت نوازع الايمان المطلق بالجهاد والتضحية ، واستذكرت الاحاديث التي كان يتناولها المقاتلون ، وطبيعة الروح القتالية التي يتمتعون بها ، واساليب المصاولة ، واعداد الجيوش ، وتفاصيل الخطط الحربية ، وتوزيع القيادات واشكال التوجيه والتوعية التي تبعث في النفوس الحماس ، وترسخ اسباب الاندفاع وتشد عوامل المقارنة الى جانب ما كانوا يفخرون به من ايام ، ويمدحون به من اوصاف ، ويستخدمونه من وسائل لاضعاف قدرة الخصوم ، ونزع مقومات الثقة ومن الطبيعي ان يكون هذا الضرب الشعري لونا غير مألوف ، او رافدا لم تتهيأله الاساليب الفنية المألوفه في الهيكل الشعري ، وربما كان هذا السبب من الاسباب التي دفعت رواة الادب والمؤرخين لحركته الى ابعادهم عن دائرة الاستشهاد ، وقد ادى ذلك الى اسقاط هذه المجاميع من الشعراء الذين مارسوا الحرب وعبروا عن دقائق احداثها وتفاصيل مجرياتها ، وفصل الاطار الفني او التقليدي عن حلقة الشعر العربي التي لازمت التعبير الذاتي لمسيرة الامة ، وما احتواه هذا الشعر من صور واقعية ولمسات انسانية حية عاشت في وجدان المقاتلين وهم يقفون وجها لوجه مع الحدث ، وينقلون الموقف

البطولي من ميدان المعركة . .

هذا الشعر كانت له لغته المستوحاة وكانت له اساليبه المستنبطة من الواقع الشعري الذي فرضته الاحداث الحادة والوقائع الحاسمة ، ولم تفرد لهذا الشعر دراسة خاصة ، على الرغم من انه شعر جديد في صياغته وطريقته ومباشرته ودلالات الفاظه التي اكتسبتها من النمط الجديد للحياة الاسلامية وقد اتسمت بالبساطه وعدم التعقيد والابتعاد عن الغرابة وتناول الحدث باقصر الاساليب والتاكيد على ذكر الموقع ، والصدق في التعبير عن التضحية والجراة في مجابهة الخصوم ، والاشادة بمآثر المعارك ولم ينس هؤلاء الشعراء وهم يتحدثون عن ممدآت الحياة اليومية للمعركة عن الثقة العظيمة والنصر الكبير الذي يستمدونه من الله تعالى وقوته ، والعزم الذي يعينهم على دحر هجمات المشركين والكافرين الذين لا يكون مصيرهم الا النار . .وهنا كان شعر الحرب في هذا التوجه هو شعر العقيدة الراسخة التي اقترن بها والتزم بأداء رسالتها ، فتواصلت في قنواته صور الجهاد ، وامتدت في زهو قوافيه خفقات القلوب المؤمنة وهي تنتصر لقضية الحق ، وتستذكر في دفقات احساسه مآثر الرجال الميامين الذين طرزوا اسفار التاريخ بكل ما يدعو الى الاعتزاز والاباء . . وهذا ما بقي واضحا ومتميزا في الشعر الحربي مهما تباينت دواعيه ، واختلفت اسبابه لان الاحساس بالتعبير عن الحالة الصعبة التي يمر بها المقاتل هي الحالة التي تظل ملازمة للانسان في كل المراحل ، وان الصورة التي يراها هذا المقاتل - على لسان الشاعر - هي الصورة التي تمر امام عيون المقاتلين فوق ثرىكل معركة عادلة ، وعند كل خندق من خنادق الصمود والمجابهة والاستعداد .

تتحرب عند العرب كما عند غيرهم من الامم - دواع تستثير همهم ، وتوقد جذوة احساسهم ، وتدفعهم الى الوقوف امام كل محاولة من محاولات التحجيم او الاحتواء التي كانت تحيق بهم ، وكانت دواعي الحرب هذه تأخذ ابعادها في صور شتى ، وتتجسد في حالات مختلفة ، يتصل بعضها بطبيعة الحياة ، ويتجاوز بعضها الاخر حتى يصل الى النظام القبلي والبناء الاجتماعي والتكوين الاسرى وفي كل حالة من هذه الحالات تنبعث عوامل وتستثار اسباب وكثيرا ما كانت هذه الاسباب تتوحد لتصب في مجرى المسببات الحادة في تأجيج نارها ، وايقاد عواملها والهاب ما يدعو الى استمرارها . . وقد ساهمت (الموثبات) وهي القصائد التي قيلت لاستثارة الرجال ، وكان لهذا الضرب الشعري الذي يعد من اكثر فنون الشعر توهجا وادعاها لحالات المواجهة التي تتطلبها وتستديمها ظروف الاحتدام ويتحكم فيها الاحساس النفسي فيتحول المقاتل الى طاقة متحركة ، وتسجيب لها مشاعر التواصل فتتوجه الوجهة المطلوبة ، وتنتهي فرص الاستثارة ، وتنشط اسباب الاحساس باهمية الحدث ، وبقدر ما تكون الاستثارة متوافقة من حيث اختيار الجوانب العاطفية ، او التوجة الى مخاطبة الدواعي المثيرة عند الانسان تكون الاستجابة الحاصلة اقوى واشد ، ويكون رد الفعل اقصى وامد . لان اسلوب المخاطبة وانتقاء الالفاظ ودراسة الوضع النفسي وقدرة التحكم في طريقة المعالجة تؤدي ادوارها المثيرة في التحكم بقدرة التوجيه وانتزاع الاحساس المناسب ، وتحشيد القوى الكامنة في النفوس ووضعها في المسار المطلوب وتوظيفها في مجال الحدث المقرر ، والانسان الذي عرف اساليب الحياة ، وخبر وطأة الظروف واستجاب لنوازع المفاضلة في كثير من الحالات ، ووقف على القيم الاساسيه التي تحدد موقعه في كل المجتمعات كان على بصيرة تامة بهذا المسار الطويل الذي قدم له حصيلة غنية من التجارب واغناه باسباب كثيرة من اسباب التحرك .

والعرب الذين ساهموا مثل بقية الامم في التكوين الحضارى وقدموا عبر مراحلهم التاريخية الطويلة ثمرات ناضجة لرحلة الانسان .

وشاركوا في بناء اقدم الحضارات عراقة واصولا ، واستوعبوا دورهم التاريخي والانساني ، ولمسوا - وهم يخوضون غمار الحياة - الوانا من المواجهة ، واشكالا من التحدي ، قد اهلتهم هذه التجربة الطويلة الى ان يعرفوا نوازع الانسان الحية ، ويدركوا مقدار الاستجابة لكل قيمة من قيمه ، ويستنبطنوا دواخله التي لا يمكن ان تنفصل عن اي تكوين من تكويناته . واذا كان احتدام الصراع ظاهرة شهدها هذا الانسان فأن الاسباب التي تكمن في داخله كانت خاضعة وبأي شكل من الاشكال لصور هذا الاحتدام ، بعد ان تمكنت موضوعاتها في نفسه ، وتحركت دواعيها في سلوكه ، ولما كان الشعر وجها من وجوه التعبير ، وحالة من حالات الاستجابة فقد استطاع هذا الانسان ان يوفق في استخدامه لما يراه مناسباً ولما يتحقق في ذاته من احتدامات .

والتوثيب في الشعر العربي حالة حية احسن استخدامها الشعراء العرب واستطاعوا الوصول الى تهيئة الاجواء المناسبة عندما يجدون انفسهم بحاجة الى توحد ، ويشعرون بالخطر يتهددهم ، وبالاعتداء يقع عليهم ، وكانت

الموثبات من القصائد المصاحبة لكثير من الاحداث . والموادبة لاهتزاز المشاعر القومية ، وقد وجدت فيها النساء الهابا حماسيا لدواخل الرجال ، واستثارة واعيه لعزائمهم وخاصة في حالات المواجهة وعند احتدام المعارك ، وقد اخذت مساحتها الواسعة في ميدان الشعر ، بعد ان وجدت الحماسة طريقها الى كل نفس ، وتحققت في كل ذات ، واستقطبت اغراضا لها صلتها في الاحجام الوجدانية الواعية . وبقدر ماكان التوثيب حالة للاستثارة ، ومدعاة للتحفز فأنه كان ينطلق من ايمان الموثبين بتفاهة الحياة بعد ان شعر الانسان وبضآلة الاستمرار في الحياة في حالة التراجع والتخاذل والانكسار ، وعندها تفقد الحياة لمعمها ، وتموت في دواخل الانسان اسباب التطلع ، وتتيه في حشرجات اليأس بوارق المواجهة والتحدي ، وفي كل لون من الوان التوثيب ترتفع صيحات الاستهجان من مواقف التخاذل وتعلو نداءات التعبير من حالات التردي في اوقات التردد او الاحجام او التنصل عن المشاركة الفاعلة في الدفاع عن الحق .

وتتوالى صور التعبير التي تجد فيها النساء مساحة كبيرة من الحديث وميدانا واسعا من ميادين الاستخدام المناسب للالفاظ الموحية والصور المثيرة والعبارات الحادة ، لانها يمثلن النقطة المتحركة في اطار الحماية ، والبداية المطلوبة في استثارة الرعاية . وعلى الشفاه تتوارد دلالات الالفاظ التي تشد المقاتلين الى الثبات ، وفي الصور التي يقدمنها تتحكم ارادة المخاطبة والتهم بعد ان اصبحت المرأة قريبة من الاحداث ، موصولة بالاطار العام الذي يتحرك فيه وعنصرا حاسما في حدثها ، او طرفا مؤثرا في الطرف الاخر .

وقد استطاعت من خلال حسها المرهف ، وتمكنها من معرفة النتائج ان [illegible] قصائد التوثيب من القصائد التي تركت اثرا متميزا في شعر الحرب ، لانها [illegible] المواقف القتالية ، ووجهت بعبارات مؤثرة دفة القتال ، وقد دفعتها هذه المواقف الى ان تأخذ دورها الخطر ومشاركتها الفاعلة في بعض الاحداث التي ألمت بالامة وهي تعرض رأيها بشكل [illegible] بهيئة قصيدة شعرية ، او قطعة قصيرة ، او ابيات مفردة . وقد امتلكت زمام المبادرة في تحرير شعور المرؤة ، وبعث عناصر المقاومة ، وتنشيط اسباب التواصل في القتال ، وايقاظ مظاهر الحس القومي الرافض لكل وصاية او احتواء . وكانت اصداء هذه القصائد تمثل الاصوات الضخمة التي تدق في دروب استعادة الحق ، واسترجاع الكرامة وايقاف زحف القوى الغادرة ، وترسم حدود الموقف الرافض لكل محاولة من محاولات تذويب القضايا المصيرية ، وقد كشفت المرأة في هذا الجانب - عبر سلسلة نضالها الطويل - عن مشاركتها الفاعلة والمؤثرة في الوصول الى مواطن الشعور عند الرجال ، ومكامن التحرك في ذاتهم ، وبؤر الاستثارة في وجدانهم ، لترفع في قصائدها اسباب الاعتزاز ودوافع الثأر للكرامة وتوازع الشجاعة عند احتدام المعارك .

كما اكدت رفضها لكل صيغة من صيغ الخنوع او محاولة من محاولات القهر لارادتها ، وهي في كل مرة من هذه المرات تتحمل اعباء التوجيه ، وتسعى من اجل استعادة الحق المهدور والكرامة المستباحة وقد تركت

لنا (الشموس) وهي تسجل رائعتها المشهورة اطيب الذكر واخلد الاثر ، وقد افتتحتها ببعض الابيات حق قالت :

فموتوا كراما او اميتوا عدوكم ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
ولو اننا كنا رجالا وكنتم نساء لكنا لا نقر بذا الفعل
ولاتجزعوا في الحرب ياقوم انها تقوم بأقوام كرام على رجل

ومثلها صنعت (خويلة) عجوز بني رئام و (ليلى بنت لكيز) و (كبشة) اخت عمرو بن نعد يكرب وغيرهن ممن شاركن في هذا الفن الحربي ، فأصابت كلماتهن قلوب الرجال ، وتركت اثارها الحاسمة في سلوكهم ومواقفهم فكانت انتفاضة الشرف وصورة استفزاز المشاعر والهاب حماس الرجولة ، وبقيت هذه القصائد وما اثارته من مشاعر تمثل النموذج الملتهب الذي يملأ النفوس بكل ما يدعو الى الاقدام دفاعا عن الحمى وذودا عن الحق واستبسالا في استرجاع المجد .

وبقي صوت الشاعر في التوثيب واستثارته في التحريض شاهدا متميزا ، وصوتا مرتفعا ، واذا كانت المرأة الشاعرة تؤدي دورها في قصائد التوثيب وتتحرك في مجال دائرة الاحساس التي عرفت خوافيه ، فأن الرجال قد طرقوا هذا الباب ودخلوا هذا الميدان بقصائد (موثبة) مستخدمين ما يتناسب مع دورهم الرجولي ومدركين لما يمكن ان يضع قصائدهم في الموضع الملاءم ، ولكنهم ظلوا عن قادرين على استيعاب الحالة القتالية التي توصلت اليها المرأة وهي تضرب بالفاظها اوتارا صاخبة الرنين وتختار الوانا شديدة التأثير في مجال المفاضلة

وما يزال باب هذا الفن الشعري من الابواب الجديدة التي لم يكتب عنها الا القليل ، ولم تفرد لجاميعها الا الفصول اليسيرة بعد ان ظلت تأثيراتها في حركة الشعر تخترق الحجب وتستثير المواقف ، وتهيء العزائم حتى يومنا هذا واذا كانت الدراسات قد افردت لها (رسالة ماجستر) فأنني مازلت اعتقد بأن البحث متسع لتقديم تحليلات اخرى لهذا الغرض الذي ظل يوقد جذوة الحس القومي ، ويوزع في نفوس الناشئة اسباب الحرص على القيم الكريمة والمثل النبيلة لانه يصيب جوهرها في معالجته ويستثير كوامنها في تعرضه ، ويتناول مادق من اجزائها في تعبيره ودلالته .

١) الموثبات في الشعر العربي قبل الاسلام . محمد عبد الفتاح / رسالة ماجستير مكتوبه على الآلة الكاتبة نوقشت في كلية الاداب – جامعة بغداد

اذا كان الشعر العربي قد اعطى هذا الجانب مساحته في قصيدة الشعر فان المضامين الانسانية الاخرى كانت تأخذ مساحة غيرها من المساحات الفسيحة التي زخر بها هذا الضرب الفني فكانت قناعة الاستشهاد الراسخة والاستعداد للتضحية والاستمرار في دفع ضريبة الدم صوتا للشرف واقتناعا - بتحقيق السيادة . وكانت من القيم الخيرة التي دافع عنها المقاتلون وعبر عنها الشعراء من ابناء هذه ابناء هذه الامة . وحرصوا على تحقيقها في كل مجال من مجالات الحياة وهي قيم اصيلة وموروثة ومثل انسانية استمدت قدرتها من نفوس الابناء البررة واكدت حقيقتها في النماذج الشعرية التي امتلأت بها كتب الاختيار ودواوين الشعراء وعبر العصور الطويلة ، وخلال المعارك الطاحنة ، وفي ظل المجابهات الحادة التي عاشت في نفوس الاجيال ، واصبح الاستشهاد مدعاة للفخر ، ومثارا للاعتزاز وموقفا بطوليا من مواقف الشجاعة والانتصار ، وقد دفعهم هذا الى حمل نفوسهم على المكارة فركبوا الموت خشية العار واستطابوا الموت عند المنازلة وكان شعارهم : (٢

اذا ما رأينا الموت لم نلف عنده هجاجا ولم نهرب ولم نتفرق
ولكننا لم نأت حتى نديشـــه بأسيافنا من بين ماش ومعنق

وفي التضحية التي عرفتها ساحات المعارك نماذج متقدمة تزاحمت في تقديمها قوافل الرجال وتسابقت الى الوصول اليها مواكب المقاتلين وهم يردون مناهل الاستشهاد ، ويدفعون النفوس رخيصة ارضاء لعظمة المبادئ ، ووفاء لسماحة العقيدة الموحدة . وتبقى صور الرجال الافذاذ الذين استرخصوا الحياة لواء خفاقا من الوية العز والاباء وهي تتحرك في دواخل المضامين الشعرية ، وتزهو في نماذج الشعراء وهم يعلمون ان التضحية التي آمنوا بها وجه من وجوه المجد وان صداها يخترق الزمن ، ويتحدث الى الاجيال ، وانهم يتركون مآثر تحمد ، ومكارم تخلد ، وان حياتهم الكريمة التي قدموها قربانا لتراب الارض تسجل الخطوات المحمودة التي آمنوا بها وقدسوها وعاشوا من اجلها ، وانها بقيت في وجودهم حسا متميزا ووجودا انسانيا حيا . وان ايمانهم بهذه القيم ووفاءهم لهذه المبادئ جعلهم اكثر اندفاعا في القتال ، ويظل رمز عبد الله بن رواحة هو الاطار العام الذي تجاوبت في اعماقه نفوس المؤمنين ، وانسابت في معانيه احاديث الرجال وهم يجابهون الموت ، ويقفون وجها لوجه امام احداثه الجسام . (٢)

١ - يانفس إلا تقتلي تموتي ان تسلمي اليوم فلن تفوتي
٢ - أو تبتلي فطالما عُوفيت هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت

وهي اصداء لا حاديث الشعراء الفرسان الذين لا تخيفهم الحتوف لانهم آمنوا بالمنايا وان للنفس حينا تحين فيه ، واجلا تنتهي عنده فتمادحوا بالموت في ظل الرماح ، وتفاخروا بالقتل عند اشتداد المعارك وقد بقيت جذوة هذه التضحية وهاجة في سجل الامة وهي تمد الاجيال بعطائها الخير ، وتواصل مسيرتها . .وقد حاول الشعراء ان يبدعوا في تصوير هذه الحالات ويقدموا وهم يقفون امام تيارها تجاربهم وجرأتهم وثباتهم حتى

اوشكنا ان نقرا في صفحاتهم صورا متراصة من التضحية ، واسفارا متتالية من الصدق في العقيدة ، واوجها متتابعة من اوجة الاقتدار البطولي ، وقد حفظت لنا ايام العرب بحروبها الطويلة والقصيرة اكداسا متراكمة من شعر السير ومجاميع حافلة من قصائد الشعراء الذين خلدوا هذه الايام وتابعوا احداثها وتمثلوا حقائقها المباشرة . وبقي هذا الشعر يطوى في حديث الايام ويفسر في ضوء الوقائع وتنتزع منه بعض الظواهر لتكشف عن حالة من حالاته ، وبقي معه الفن الشعري الاصيل الذي عاش في نواته ، واستقر في ذاته وحامت حوله كثير من مستحدثات التحرك اليومي لكل حادثة او واقعة .

وقد ظهرت في الفترة الاخيرة دراسات جادة لشعر الايام وقفت عند تحليل كثير من جوانبها وانسحبت هذه الدراسات على المواقف التقليدية الجامدة التي انحصرت في اطار المألوف من الاحكام ، والموروث من التفاسير ، ولكن هذه الدراسات - وان كانت فاتحة عهد جديد في ميدان الشعر في هذا العصر - فانها فتحت الافاق ، ووطدت السبل ، وهيأت الوسائل التي يمكن استخدامها في اعادة التقويم . ولابد ان تكون معبرا جديدا لتراث شعر حربي اصيل ، وجسرا ممهدا لقراءة جادة

٣) الديوان / ٨٧

لمفرداته التي حملت من المضامين ما يقدم تحليلا للواقع العربي ، ودراسة لابعاد الحضارة التي اختزلتها هذه الموروثات وعاشت في اذهان الشعراء الذين استخدموها في صورهم او احاديثهم او استشهاداتهم .

لقد توثقت في نفوس المقاتلين صورة المنايا وهي منهل لابد ان يستقوا منه وان الانسان المقاتل لايمكن ان يكون متقدما وان المواجهة تتم من خلال تفويت الفرصة على الخصم ، ومطاردته واللحاق به ، وان فرصة الموت في الاقبال هي اقل من فرصة الموت في الادبار ، وان حالة الهجوم والانقضاض هي اكثر حكمة من حالات البقاء والاستخذاء ، وتضييع فرصة الهجوم على الخصوم وارباكه اكثر توفيقا من التراخي والانتظار . وقد ظل هذا الاطار متواصلا في الشعر ، ومحمودا عند الشعراء في ذكر المآثر ، والوقوف عند المحامد ، والاعتزاز عند المناجزة المناظرة حتى عدت ابيات الحصين بن الحمام المرى من النماذج الشعرية الخالدة في تأكيد هذا المعنى . (٤)

تأخرت استبقى الحياة فلم اجد
لنفسي حياة مثل ان اتقدما
فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا
ولكن على اقدامنا تقطر الدما

فالطعن في الصدور هو صفة الشجاعة ونزول الدم على الاقدام هو دليل الاقدام وهذا ماتعود عليه المقاتل العربي وهو يواصل ترسيخ قيمة الاصيلة ويفخر بوفائه لها ، ويعتز بوراثته لما حرص عليه الآباء ،فكان يستلهم من معانيه معاني الرجال الذين سبقوه فيها ، ويقاتل بروح الامة التي ورث مجدها ، ويعبر عن الصورة العزيزة التي عاشت في وجدانه وانتقلت في موروثه الفكري والحضاري فكان كل شاعر من الشعراء

يؤدي مهمة حمل (الصيغة الشعرية) بكل محتواها ، وينقل (الحالة التعبيرية) بمفرداتها الى الجيل الذي يرى فيه وفاء الامانة ، وسلامة الحفاظ وقدرة المسؤولية . فعاشت قيم التواصل في ضمير الرجال واستمرت صورة الاعتزاز في نضال المؤمنين ، واستفاقت صيحات النهوض في خفقات الشعراء الذين كتبوا شعر الحرب ، وعرضوا لاغراضه الفنية بما يتفق مع انسياب حركته الرائدة

٤ ـ حماسة ابي تمام / المرزد في / ١ / ١٩٧ ـ ١٩٨

وتحقيق مصالحه المشروعة طريق اداء الرسالة الانسانية التي كتب على هذه الامة حملها ، وعلى قادتها رفع رايتها . . وظلت اسباب هذا التواصل واعتبارات الحالة الجماعية هي الصوت المرتفع في المحتوى القتالي وارادة الانسان وهو يشعر بقوة الاخرين من ابناء امته هي الصيحة المرتفعة في خفقات المواقف القتالية الراهنة ، وتحديات القوى الباغية التي ارادت لهذه الامة ان تقف عند حدود مرسومة ، فحاولت اسكات صوتها ، فضمير الجماعة في قصيدة الحرب كان لونا شعريا واضحا والحس القومي المعبر في صورة الجماعة هو الاسلوب المعتاد ، شعورا بالقوة ، واحساسا بايجاءات الانتماء التي وضحت في حالات التعبير فكانت الفاظ (انا) و (انفسنا) و (اموالنا) و (ايدينا) وكل الالفاظ التي تختتم بالضمير (نا) وقوافي الشعر التي تنتهي بضمير الجماعة كما هو الحال في قصيدة عمرو بن كلثوم وبشامة الهشلي وعبد الشارق بن عبد العزى الجهني وعشرات القصائد التي تحدثت بصيغة هذا الضمير ، واستمدت قوتها من القدرة الجماعية التي وجدت في التعبير جانبا من جوانب الثقة ، وصوتا من اصوات الاحساس بمسؤولية الوقوف والمجابهة والتحدي ، وقدرة متداخله من قدرات التاريخ المشترك الذي يجمع الابناء عند اشتداد المواقف ، ويوحد اهدافهم عندما ترفع دواعي الخطر عقيرتها ولتجهز بحقدها لاطفاء شعلة التواصل التاريخي .

(٤)

- وصورة الحرب في القصيدة العربية القديمة صورة متسعة تمتد اطرافها حتى تضم جوانب المعركة ويتحرك في مدارها الفارس حتى يلون قسماتها بأزهى الالوان واكثرها اشراقا ، وتتعالى في فضائها لوامع الرماح وهي تشتجر ، وبريق السيوف وهي تتقاطع ، وسوابق الخيل وهي تكر تارة وتفر اخرى ،فهي صورة كبيرة تستوعب القصة الحربية بتفاصيلها وتنفرج لتترك مساحة موزونة لما يريد ان يتحدث عنه الشاعر من ماض تليد واخبار مأثورة وملاحم قبلية راسخة في الذهن وثابتة في الحديث الموروث ، وسعة الصورة تعطي السامع مجالا للاصغاء ، وتترك له فرصة الانتباه - والمتابعة ، لان الشعراء يحسون في هذا الامتداد فسحة لقدرتهم الشعرية ، وميدانا لانطلاقهم ومسلكا تتحرك فيه القوافي بلا جهد ، وتنساب فيه الصور بلا تعب ، وتنثال على دروبه العبارات وهي متكاملة دون انقطاع ، ويجد الشاعر نفسه وقد انفتحت آفاق القصيدة امام رغبته التعبيرية الجامحة ، واتسعت رحاب الاختيارات لما حاول ان يعتمده في تقديم اللوحة الشعرية وكأن ايقاعات هذه الصورة وهي ترتكز عند كل (تفعيليتين) متناسقتين وقد تركنا للشعراء فرصة التوقف عندها لتقديم حكمة معقولة ، اذا كان الموقف يقتضي مثل هذه الحكمة ، او رأيا منطقيا تتوازن فيه الاعتبارات المطروحة في مجال الفخر او المديح ، او حجة تسقط حساب الاخرين عند المناثرة ، او مأثره يعجز الاخرون عن الوصول اليها او الادعاء بمثلها فكان لها اثرها في توثيق حالة التأمل من خلال النغم الشعري ، والتحدث في حدود الوزن الملائم لنهاية العبارة . ،

ان هذه الحركة النغمية الهادئة ، والصورة الشعرية المتسعة قد اهلت الشعراء للوقوف عند البحر الطويل وقفة طويلة ، والتأثر بحركته الممتده تأثيرا واضحا لانهم وجدوا فيه المجال الطبيعي للمقولة الشعرية المناسبة ، والصيغة المقبولة ، والزاوية المفتوحة التي يمكن ادخال الالوان المختلفة لتسلطها على كل وجه من وجوه المعركة ، وتحديد النضارة اللونية المتميزة لكل لون وفي الحدود المتفق عليها في البناء والاستعمال ، او التقطيع المستمر الذي يأخذ بوحدة اللفظه والتنغيم المضطرد الذي يسبغ على القصيدة صنعة الامتداد والعقلانية ، ويفسح لمعانيها سمة البروز والتعبير فأنه ظل يعطي هذا البحر رجاحة القوة ، وحكمة الهيبة النغمية المعتمدة على جلالة الحرف وحسن تألفها وتناسق تكرارها .

فلغة الحرب لغة واضحة ، يتسرب من خلال الصدق التعبيري ، ويزهو ألق تراكبها في خضم الاحداث التي تناولها الشاعر ، وربما كانت هذه الخصائص من الدوافع الحقيقية التي حملت الشعراء على خوض هذا البحر والوقوف عند حركته التقطيعية والمتكاملة التي اصبحت تستوعب الاحداث التاريخية الكبيرة والتزم به وهم يقتفون اثر البناء التقليدي . . .

واذا تجاوزنا القصيدة التفصيلية ، وتجاوزنا البحر الطويل الذي عمد اليه الشعراء وهم يعرضون لصور

البطولة الموروثة ، ويقفون عند الا مجد العربية العريقة التي وجدت في صورته انفاسا واتساعا ، وعرفت في ابعاد حركته اهتزازا نغميا متميزا فأن البحر الوافر كان استجابة واجبة وسريعة ومتلاحقة لقصيدة الحرب المباشرة والمعبرة عن التأثر الاني والحماسة الثائرة والمخاطبة القوية ، التي تحملها نغمات هذا البحر السريعة ، وزنة الفاظه الموجبة ، وقد اصطبغت بالالفاظ المكررة وعبارات التخاطب التي توجب المواجهة ، او اشعار المخاطب وابلاغه بما يريد ان يقوله المقاتل واندفاعه وراء الحركات الايقاعية الرتيبة التي يضخها هذا البحر ويتحرك في اطار نغمتين متناسقتين (مفاعلتن)

ثم يتوقف عند نغمة اخرى تقطع على هذا الانسياب امتداده ، وتوقف تدفقه لتستقر عند (فعولن) التي تغير المجرى النغمي ، وتصد جموحه المتدفق وقد تراءت في كل لفظة اصداء الصورة المتحركة . وهي صورة المحاججة والمواجهة والمقابلة وقد اتسمت كثير من قصائد الفتوح بهذه السمة ، وتحركت كثير من مقطعات المحاربين والمقاتلين من الشعراء صوب هذا الاتجاه الفني المقبول . ولعل في قصائد القعقاع بن عمرو وعاصم بن عمرو ونافع بن الاسود وابو مفرز الاسود بن قطبة خير نموذج لهذه الظاهرة الفنية التي اوشكت ان تكون اشعارهم مقتصرة على هذين البحرين (الطويل والوافر) بعد ان اصبح شعر هؤلاء المجاهدين صورة من صور الجهاد البطولي ، ولوحة من لوحات المجد الاصيل الذي ترسخ في كيان البيان البناء الشعري لهذا الفن ، وعد واجهة زاهية من وجوه التفاعل الحي الذي خلقته تجربة المقاتل وعطرته سيرة الجهاد النبيلة وخلدته قدرة الاستشهاد الصادق ، واكدته بطولة الرجال العظام وهم يقفون على اعتاب المجد ، وينشرون رايات الجهاد ، ويدافعون عن ثغور الدولة الرائدة ، فكانت لهم اسباب الخلود قائمة ، وبقيت مآثرهم في صفحات التاريخ تنبض بالعز والسؤدد وتستذكر بأباء عندما يجد الناس انفسهم بحاجة الى مثل حالة الاستذكار هذه .

واذا كان الوزن الشعري لقصيدة الحرب قد خضع لانغام بطولية متشابهة او عاش في ظل اطار عروض معين للاسباب التي وقفنا عندها او عند بعضها على الاقل . فأن هذه القصائد قد اختزنت معجما واسعا من معاجم الالفاظ الحربية والمواقع التي دارت فوقها والاماكن التي شهدت بطولة الرجال وعرفت قدرة الشجعان البواسل وهم يعطون الحياة حقها ، ويواصلون مسيرة التأريخ الحي بكل ابعاده ، وينشرون قيم الحياة لكل معانيها ، فألفاظ (البيض الخفاف) و(الصوارم) و (السيوف الهندية) و (والقنا السمر) و (الرياح) كلها دلالات حية في بناء القصيدة ، ومعان بارقة في وجوه القصائد وهي تكسب حدتها من شدة المعركة وقوة الاندفاع ، وصلابته العقيدة ، وروعة الانتصار الذي كان يتيح للمقاتلين والشعراء منهم مجال الابداع ، وانتزاع الصور الفريدة ، والاستشهاد البطولي الفذ ، ويضفي على القصيدة وجاهة الصدق التعبيري ، وصفاء القصيدة التي تمازج معانيها ، وتعلو بنصاعة فوق تراكيبها اللفظية ، واذا كانت اشكال السلاح الذي تعاطف معه المقاتل العربي ، وعرف في ابائه ابأة وفي عزة عزة فأن مواكب (الكتائب) و (دفعات الخيل) و (المجالدة) و (الجراح) و (الموت) و (اللقاء) و (الثغر المخوف) وغيرها من الكلمات التي كانت توحي بدلالات الحرب او تذكر في حالة الحديث عنها ، كانت تؤخذ مساحة مناسبة من حجم القصيدة وتنشر على سطور واسعة من سطور الابيات لتشد بين اجزائها المتباعدة ، وتوحد بين المعاني

المنثورة في ثنايا الابيات ، وكان الشعراء يحسمون فيها مواقف حادة تتعرض لها بعض الابيات ، لان توفير الخزين الشعري من هذه المعاني يعطي القصيدة زهاء حربيا ، واشراقا لايبعد عنها الوجه الحاسمي ولايزيل عن قسمتها ارج العطر القتالي وعبق الجهاد العقيدي المتميز . فالصورة تبقى شامخة وهي تتحد في دفقات المعاني المختارة ، والالفاظ المنتقارة ، والحديث عن السلاح عند شعراء الحرب يعد جزء من اجزاء المعركة ، وعنصرا من عناصر التي تستكمل لها ادوات النصر ، وتحسم بواسطتها اسباب المعركة (فالقناة لدنة) و (السيف ابيض) و (القوس صفراء من نبع) والشعراء لا يكتفون بتجديد نوع السلاح وانما يستذكرون اقسامها واجزاءها ومضاءها وقوتها وخصائصها واسماءها في كل حالة من هذه الحالات يستذكرون اداءها في المعركة ، وبلاءها في حالات الضيق ، ونعوتها عند اوقات الشدة ، وهم في كل جانب من هذه الجوانب يصبون اليها حالة ، ويؤكدون فيها صفة جديدة ، لانهم يستمدون من هذا الوصف ثقة ويزدادون به قدرة تذهل عدوهم فسيوفهم ليست كسيوف الاخرين لانها بأياد مؤمنة تعرف كيف تستخدمها ، وعند رجال اشداء يحسنون الضرب بها وضرباتهم تفلق هامات الرجال ، ونبالهم تخرق اجساد الخصوم ، وتزيل الرؤوس عن الاجساد وتنزل بهم افدح الخسائر ، وقد حاول الشعراء ان يمنحوا السيوف الوانا ناصعة والرماح حركة لدنه ، والاقواس اصواتا مرنة ، لتترك اثرها في العين والاذن والتصور ولتبقى قدرتها في المصاولة اشد واقوى ، وربما كان الشعراء يحذفون الموصوف من الصورة لتظل الصفة قائمة ودالة على حالة الموصوف بعد ان اقترن بها وعرف بمتابعتها .

(فالابيض) هو (السيف) و (الصفراء) هي (القوس) و (الرديني) هو (الرمح) و (المشرفي) هو (السيف) واليثربية هي (النبال) و (نسج داود) هي (الدروع) .وقد امتلأت قصائد الحرب بصور الحشود وهي تتزاحم ويحرص الشعراء على تحديد حركتها ، واعداد القتلى وقد تناثروا على ارض المعركة جثثا هامدة ، او لاذوا بالفرار متسترين تحت جنح الظلام ، او متخذين من التلول مخابئ ومن الوديان مواضع اختفاء ، او استسلموا طائعين ، او وقعوا في الاسر وهنا كانت تتجلى اهمية النص الشعري وهو يجدد حركة الفتح ، ويسوق اخبار المعارك ، ويذكر اسماء المحاربين والقادة ، ويعصي اعداد المشاركين في كل معركة ، وفي اضافة هذه الاخبار - التي كانت تبدو غريبة او بعيدة عن التصور - تتوضح صورا لتاريخ البطولي وهو يشهد باقتدار المقاتلين الذين تدفعهم صلابة الايمان الى الصمود والمصاولة وتحملهم على ان يظلوا رافعين راية الجهاد والمقاومة دون ان يعرفوا للتراجع مكانا او التردد والاحجام صورة ، وحتى في حالة التراجع التي تفرضها طبيعة المعارك كانت اسبابها ودواعيها تحقق في ذاتهم مواصلة المعركة ، وترسم لهم حدود الانتصار المرتقب في حساب المعارك الطويلة الامد ، لان معاركهم لاتقف عند حدود موقعة ولا تنتهي في اطار يوم ، فالفكرة التي آمنوا بها حملتهم امانة المواصلة في نشر الرسالة ، والدعوة الى تحرير الانسان ، والذود عن كرامة المجاميع البشرية التي عرفت فيهم دعاة فضيلة ، وهداة امجاد ، وقناديل رسالة سماوية سمحة وهنا كانت تتجلى عبقرية الشعراء الذين يختارون الزواية الحادة

في الوصف والشرائح الملتهبة في اختبار الحديث ويركزون على الجوانب التي تفقد الخصم قدرته على الدفاع ، وتبعده عن تناول الحدث الذي يجد فيه لنفسه مأمنا او موقع دفاع ، وتظهر براعتهم باستخدام الافعال التي تؤدي الى اذلال الخصوم ونزع الثقة عنهم والتقليل من شأنهم واظعاف قدرتهم القتالية ، وكانت هذه الافعال تتولى وهي تجدع الانوف وتهتك البيوت وتحبس الركاب وتهدم الماهات .

ان لغة الشعر التي احسن الشعراء اختيارها كانت مستمدة من واقع الحياة اليومي لمفردات الحرب ومعبرة عن الاحساس الغامر الذي يحكم هذه المفردات وهي لغة مباشرة لا يتكلف فيها الشاعر ما يريد ان يعبر عنه ، ولا يفتش عن اللفظه التي يسعى الى وضعها لتبدو الصورة متكاملة ، لانه في موقف يقتضي منه الحديث الشريع ، واللقطة العابرة والموقف الذي تستدعيه المعركة ، ةوالرد الذي يجابه به الخصم ، وقد جرت هذه المحاولات التي حرص الشعراء على الوفاء بها والالتزام بأدائها ، حرصا منها على تثبيت واقعية الحدث وتسجيل الخواطر المقترنة بهذا التسجيل ، والاحساس المرافق له ، والتأثر الصادق الذي يثيره في نفس الشاعر ، جرت هذه التأثيرات على هذا الضرب الشعري الوانا من العنت والنسيان وافقداته الخصائص الفنية التي تمسك بادائها انقاد ، واعتبروها مقاييس ثابتة باختيار النص الجيد او تصنيف الشاعر في حدود الطبقة المطلوبة فاغفلت دراستهم ، وضاعت نصوصهم وحرمنا من مواقف شاعرية حية كانت تحمل اقباسا من الشاعرية الحقه وهي تقف وجها لوجه امام التجربة ، وتتفاعل مع الاحساس الحي ، وتتحرك في دائرة الموقف الصادق .

لان كتب الطبقات ومعاجم الشعراء حاولت ان تؤرخ لحركة الشعر العربي وفق ضوابط نقدية تحددت في اطار المعطيات التي حاول ان يلتزم بها (ابن سلام) او يأخذ بها (ابن قتيبه) او يعبر (المرزباني) و (الامدى) . وفي طوايا حديث ابن سلام الذي اقتصر في طبقاته بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من اهل العلم الى رهط اربعة اجتمعوا على انهم اشعر العرب طبقة ثم اختلفوا فيهم بعد .

اقول في طوابا هذا التجديد وفي مقاييس ابن قتيبة تضاءلت صور هؤلاء الشعراء الذين لم يكتب لشعرهم ان يجد محله في مراتب تلك الطبقات او لاسباب اخرى يمكن ان تدخل في اطار وقوعها في كتب المغازي او السير او كتب التاريخ مما لم يدخل في حدود الشعر الذي دخل في مجال الرواية عندما بادر الرواة الى تجميع بعض القصائد المشهورة كما فعل حماد والمفضل والاصمعي في المطولات والمفضليات والاصمعيات وتابعهم الاخفش في كتاب الاختيارين . فهؤلاء الرواة عمدوا الى قصائد لشعراء عاشوا قبل الاسلام وفي صدره او تأخروا عن هذا العصر . وهم يختارون وفق ضوابط مرسومة ، واتجاهات محددة ، واغراض تتناسب مع الهدف المرسوم من هذا الجمع .. فاقتصروا على ماجاء منهم في اطار هذه الموازين ، واختاروا لمن في ظل المقولات الراسخة في اذهانهم .. فتجاوزوهم في الاختيار ، وانصرفوا عنهم في سورة الاستقصاء عن النموذج الفني المطلوب ، والشاعر المكد او بسبب انهم لم يكونوا من اشعر العرب في مذهب من مذاهب الشعر ، او نهج من مناهجه ، او في ضرب من ضروبه ، وهي قاعدة اعتمدها ابن سلام الى جانب اعتماده قاعدة من تشابه شعره منهم الى نظرائه منطلقا من منها الى ايجاد عشر طبقات ، اربعة رهط كل طبقة ، متكافئين معتدلين . وشعراء ـ الحرب الذين تفتقت شاعريتهم في ميادين الجهاد وتوثبت قرائحهم في ميادين المعارك والهبت مشاعرهم وهم يواجهون الحياة بكل اقدارها ويتدافعون لتحقيق امانيهم السامية في الخلود والوفاء ، لم يكونوا من الشعراء التقليديين الذين ملكت صنعتهم القوافي ، وقعدت بهم عن مطالب الحياة اسباب الشعر ، فانصرفوا اليه يحكمون صنعته ويبذلون في نظمه اوقاتهم ، فهم يحملون رسالة الجهاد ويرفعون راية الحق وقد تسلحوا بالعقيدة ، وجاهدوا بالمبادئ السمحاء واستمدوا من قيادة الرسول صلوات الله عليه اسباب الاندفاع والتضحية ، وكان الشعر يجري على السنتهم تعبيرا عن كل هذه المعاني ، ووفاء للأمانة التاريخ في تسجيل المواقف ، وحرصا على روح الامة في استدامة جذوتها في نفوس الابناء البررة والرجال المؤمنين والمجاهدين الاوفياء .. وان صور النضال الحقيقي والايمان الصادق والتعبير الموحي بروح الاندفاع كانت تبدو في كثير من نماذج اشعار هؤلاء وهي مشفوعة بالثقة المطلقة بالثواب المرجو والحياة الخالدة والقناعة بالوعد الحق الذي وعد به الباري المؤمنين والمجاهدين والصديقين فاسترخصوا الحياة قبولا بالخلود ، وباعوا النفوس طلبا للشهادة ، فخلدوا لانفسهم ولامتهم الذكر الحميد . ان هذا الشعر الذي بقي بعيدا عن التناول يمكن ان يعتمد في تسجيل الصفحات المشرقة من تاريخ النضال العربي والاسلامي ، ويمكن ان يحدد طبيعة الفكر القائد الذي خطط لهذه المعارك التاريخية الحاسمة ، ويصور القدرة العسكرية الفذة التي استطاعت ان تخرج الى العالم وهي تتحلى بروح الانسانية الخيرة وتقدم للعالم نماذج من الرجال الذين بقيت ذكراهم عطرة حتى يومنا هذا ، وان دراسة النماذج المتناثرة لهذا الشعر تعطي الدارسين ابعادا لايمكن ان تكون ظاهرة في غيرها من النماذج لما حملته من افكار ، وعبرت عنه من مواقف لانها مواقف موافقة لحركة التاريخ ومتسقة مع سلامة الاحداث ، ومؤكدة لبطولات كانت الى اوقات قريبة مثار نقاش بسبب التشكيك بسلامتها والتقليل من اهميتها ، وبعد فأن هذه المقطعات تسجل الحقائق الثابتة التي لم تخضع الى تزييف او تزوير او طعن .

وتاريخ الادب الذي يعد جزء لايتجزء من حركة التاريخ قد دخل في معظم الابواب التي اعتمدت النص ، واشارت اليه ووقفت عليه واستخدمته في تأكيد مسألة او تحقيق قضية ، او استطلاع رأى وهذا مايفسر لنا ان كثير من كتاب السيرة والمغازي قد اعتمدوا الشعر في اخبارهم وهم يجدون في روايته متعة ،وفي الاستشهاد به سندا . والاعتماد عليه مشاركة في توثيق الخبر وترسيخ اصوله في نفوس المستمعين . وقد حمل هذا الاهتمام كثير من المحدثين والفقهاء الى ان يطالبوا الرواة واصحاب الحديث بالشعر ومما يروى ان ابن شهاب الزهري كان يقول : هاتوا من اشعاركم فأن الاذن بحاجة فالشعر كان له وقعه في النفس واثره في الحس ، وصفاؤه في موافقة الحدث ، ولونه في استذكار الاحاديث الى جانب استثارته لكوامن النفس ، واستقطاعه **بجوامع الاشياء وهو يحمل المشاعر الدافقة ، ويروي الاحداث المسلسلة ، ويوائم بين طبيعة** الحروف ، وجرس الالفاظ واستيحاء المعاني ، وربما كان ميل مؤرخي السيرة الكبار من الطبقة الاولى والثانية والثالثة الى الشعر ، وشغفهم به هو السبب في ادخال بعض الشعر في ثنايا السيرة ، والاستشهاد به في توثيق المغازي .

ويبقى ادب المغازي ، شعره ونثره مادة للاستشهاد ، ومدعاة للتمثل لانه كان يدل على اصوات الرجال عند اشتداد الازمات ، ويحمل خصائصهم عند احتدام اللقاء . ويظهر شجاعتهم في حومة المعارك ، الى جانب تجسيده لروح العقيدة الخالصة ، ووفائه للتعابير الانسانية التي كانت تنساب في ثنايا تلك القصائد ، او تمر عبر تلك الاحاديث . ويبقى القها الزاهي ، وحسها الوجداني وشعورها الحي تياراً تتسرب فيه دفقات الوفاء الانساني وهو يجابه الصعاب ويقترب من اللحظات الحاسمة ، ويقف على عتبة الافتراق والتباعد ، ولعل هذه الاحاسيس هي التي جعلت من المغازي صورة تستذوقها الاسماع ، وتلذ بقراءتها النفوس ، وتستسيغ تلاوتها على مر العصور ، مواكب الاجيال لانها كانت تقرأ فيها دقائق التاريخ ، وتجلى في متابعتها جزئيات الاحداث ، وتقف من خلال وقائعها على الجانب الانساني الذي يصعب ان تقف عليه اخبار التاريخ ولعل هذه المشاعر هي التي اعطت هذا اللون التاريخي طرافة الاهتمام الى جانب كل الاعتبارات الدينية والتاريخية لكونها تاريخا لبداية الاسلام ، ومواقف حاسمة في مسيرته ، والوانا زاهية من الوان الجهاد الاصيل لتثبيت اركانه وباعتبارها تسجيلا حيا للعلاقات الصادقة التي كانت تسود الحياة بين الرسول الكريم صلوات الله عليه وبين الصحابة الاخيار الذين بذلوا من اجل بناء الكيان الاسلامي اقصى مايستطيعون تضحية وايثارا ، صدقا وعقيدة ، ومن هنا كان الاحتفاظ بدقائق المغازي جزء من التاريخ الكامل والاهتمام بروايتها والحرص على جمعها واسنادها كانت حالة من حالات التوجه الاول في كتابةالتاريخ والبدايةالمنهجية للطريقة التي وضعت علم التاريخ على طريق التكامل منذ المراحل الاولى لمباشرته . كما ان اصحاب المقازي والسير من الطلائع الاولىلوضع الرصينة لتوثيق الاخبار ، وتحقيق الاسانيد التي شكلت المنهج العلمي الواضح في علم التاريخ عند العرب ، وهي طريقة اعتمدت الشعر سندا والاستشهاد به قاعدة من قواعد منهجه ، التدليل على صدق الاحداث بالاستناد الى محتواه دربا من دروب الالتزام بهذا المنهج الذي بقي واضحا في

التآليف المعتمدة ، والاصول العريقة التي حفظت الاحداث الاولى وخلدت المراحل الاولية التي قطعتها مسيرة الامة ودعوة الحق ، وسيرة الرسول الكريم وطبقات الصحابة والتابعين .

لقد سجلت كتب الفتوح - ولعل كتاب فتوح البلدان للبلاذرى - من اجلها اخبار الحروب ، ومكانة المقاتلين والويتهم وهم يسجلون النصر مما كان له ابلغ الاثر في حفظ هذه الاخبار عن طريق الرواية ، وتسجيل الاشعار لان الشعراء كانوا يقفون مع المقاتلين ، ويشتركون في المعارك ، ويخوضون الايام الصعبة ، وقد احتفظت كتب الفتوح باسماء اولئك الشعراء الذين استشهد منهم عدد كبير في البلاد المحررة ، وكانت قصائدهم التي حفظها المقاتلون سجلا من سجلات مشاركتهم الحقيقية في تلك الحروب ، وكان شعرهم لونا فنيا من الوان الشعر الحربي بعد ان تميز بطابع خاص في اختيار المعاني المناسبة والصور الملائمة والبدايات التي كانت تتفق مع طبيعة الاحداث ، وهي بطبيعتها خالية من التعقيد والتركيب ، وتتميز فيها لغة السلاح ، وتتعالى في ابياتها الفاظ الاعتزاز والفخر ، وتتداخل في احاديثها عزيمة الرجال الذين يحققون النصر وينزلون بالاعداء الوان الهزائم ويبدون عند اشتداد المعركة ضروبا خارقة من الشجاعة واعمالا جليلة من البسالة .

كما كانوا يرسمون لنا العواطف الصادقة التي تنتابهم وهم يسجلون تلك الانتصارات ، وشعر الفتوح الذي تناقلته هذه الكتب وثيقة خالدة للوقائع ، وتسجيل لحركة التحرير المتمثلة في الورود على كسرى ودخول (المدائن) قسرا ، وتجاوزهم لجيوش الفرس على كثرتها ، والتوغل في اعماق ديارهم على الرغم من اعدادهم الهائلة ، والاتجاه غربا لدفع مظالم الروم وخضد شوكتهم في اليرموك وغيرها في المعارك وتحرير بيت المقدس والشام ودفعهم عن بلاد العرب واسقاط غطرستهم التي اذلت البشر ، وامتهنت حرمة الانسان ، واستباحت عزته واباءه .. ان هذه الوثائق تعطي المؤرخ مجالا لتوثيق الاخبار المتوفرة ، وتضيف اليه حالات جديدة ، وتفتح امامه ابوابا للمعالجة غير منظورة في تسلسل الاحداث ، وتتيح له التحرك في تحليل بعض المضامين الشعرية ليجد فيها ربطا بين الحدث والواقعة ، وصلة بين التاريخ والادب ، ووجها من وجوه المقارنة بين الخبر والقصيدة ..

وشعر الحرب الذي شغل مساحته الواسعة في الوجود الشعري العربي ودللت ابياته على حالة الاقتدار المستديمة التي عاشت في الوجدان العربي نزوعا الى الاباء ، وردا لاسباب التجاوز ، وايقافا لمحاولات التحدي ، كان ميدانا لاستخدام القصة التاريخية التي اختزلها الموروث حكمة قصيرة ، او مثلا سائرا بعد ان وجد فيها دلالة واعية ، واحساسا متقدما لما يمكن ان تؤديه وهي تأخذ مكانها في ابيات القصيدة ، او تقال في سياق الحدث التاريخي ، او ـ يستشهد بها في تحديد النتائج المتوقعة ، واذا كانت القصة التاريخية المحكية او المنقولة عبر الزمن السحيق وتحمل المغزى والفكرة والغرض قد قطعت شوطا في الاستخدام وتوغلت في ثنايا القصائد ، واستغرقت الافكار التي بقيت تدور في الذهن فأن فكرة الاستلهام هذه ، وقدرة الاستيحاء التي تخلقها حالة الاستلهام اصبحت حالة من حالات البناء الشعري ، وركيزة من ركائز الاستذكار بعد ان وجد

فيها الشعراء مادة جديدة للاستنهاض ، وينبوعا من ينابيع التوثيب لما تثيره في نفوسهم من مآثر ، وتتركه في نفوس الاخرين من اثار محمودة .

ان تواصل التاريخ وهو يستعيد الامجاد ويستذكر الايام الخالدة ويوثق في نفوس المقاتلين روح المقاومة كان حافلا بالنماذج الكثيرة من شعر الحرب وهو يحمل صور البطولة التاريخية الخالدة ، ويطرز بأيام العرب المجيدة بعد ان اصبحت احداثها مثارا للاعتزاز ومدعاة للفخر (بذي قار) كانت واجهة نيرة من واجهات التوحد ، ورمزا من رموز الانتصار العربي على قوى البغي والشر ، ومأثرة من مآثر الاكتساح الذي انهى اسطورة التوغل الفارسي الى جزيرة العرب واسقط حلم الاطماع التوسعية التي منت نفسها باحتلال هذه الارض .

ومثل (ذي قار) كانت الايام الاخرى التي عاشت في الذاكرة العربية وخلدت صفحات التاريخ ، وبقي شعر الحرب في العصور الاسلامية وبعدها يستعيد ايام بدر والخندق والمغازي الاخرى التي سجل المسلمون فيها روائع الانتصار . ويستذكر الملاحم الخالدة التي سجلها الرواد الفاتحون في المدائن والقادسية واليرموك ونهاوند وفي كل مرحلة يجد الشعراء في الايام التاريخية الماضية حافزا من حوافز التوثيب وسببا من اسباب التواصل ليظل الابناء حاملين لواء الاباء ، ومجددين مآثر الرجال وحافظين امانة الاجيال ورسالة الحق .يستمدون من تضحية المجاهدين عناصر الاندفاع وقدرات المصاولة والايمان والثبات .

ان النسق التاريخي الذي تواصلت فيه حركة الامة وتسلسلت فيه افكارها واتسقت احداثها في الاطار المحدد لهذه الحركة ، حقق لها اسباب التواصل الذاتي والحياتي ، وامدها بسيل وافر من المواصفات والمواقف التي تركت اثرها الكبير في طبيعة مسيرتها . وهي تستهدي بقيمها الكريمة ، وخصائصها الانسانية المتميزة .والتاريخ الذي حفظ لها هذا التواصل وحرك في داخلها نوازع الاندفاع وهي تستلهم احداثه ، وتجد في رجاله الميامين نماذجها الخيرة وابطالها الميامين ، بقي حريصا على ان يفي بامانته لكل الاجيال ، ويقدم عبر احداثه الجسام المواقف الحاسمة التي عاشت في اعماقه متألقة زاهية ، والشعراء الذين عرفوا التاريخ بدقائقه ، وتناقلوا اخبار الامم بتفاصيلها ، ووقفوا على اسباب الخلود والرفعة ، كانوا قادرين على استلهام هذا التاريخ والالتفاع من الاخبارالمطوية في صفحاته ، وكانوا قادرين على توضيح الجوانب البارزة في كل وجهمن وجوهه، وتوظيف كل حادثة من احداثه لما يوافق اهدافهم ويرسخ في نفوسهم اسباب الحفاظ على سلامة الوفاء لكل عبرة من عبره فكانت القصة التاريخية التي احسنوا استخدامها ، وعرفوا المعاني التي يمكن ان تؤديها وجها من وجوه الرمز الحربي ، وصورة من صور الحاجة التي يرى نفسه ملزما بالحديث عنها او التعبير عن مغزاها بها او يستشهد بمدلولها .ولم تكن القصة التي يتحدث عنها وهما ميتا او حالة منسية ،او صورة باهتة ، وانما كانت وانما كانت اجزاؤها متحركة واحداثها ناطقة توحي للشاعر بالمعاني الكبيرة ، وتخلق في ذاته قدرة الاندفاع على متابعة (اللغز) الموضوعي الذي حملته وهي تعبر السنين ، وتطوق مخيلة الناس وتترسخ في موروثهم الثقافي والشعبي ،والشاعر لم يقف امامها حائرا تفزعه غرابتها ، او

تثيره احداثها . او تسيطر عليه اخبارها المفاجئة ، بعد ان عاشت في ذاته لوحة متكاملة ، ونظر اليها نظرة ناضجة ، واستقراً تاريخها استقراء احاط بكل ابعادها وما تداخل في تفاسيرها وعلل استخدامها .وحاول ان ينتفع من الموعظة التي حملتها والعبرة التي تحدثت عنها والمرمى البعيد الذي كانت تسعى اليه . ولم يقتصر استعمالها على شاعر او ينفرد بالدلالة الرمزية التي عبرت عنها شاهد شعري ، .

ان استخدام الشاعر للرمز كان ينطلق من الغرض الذي هيأ له القصيدة ، او دارت حوله المعاني ، او تحركت في اطاره الاهداف المحددة .